القصص الديني

الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين

مقتل عثمان

عبد الحميد جودة السحار

١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« طَهَ مَا أَنْزَلنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى »

(قرآن كريم)

(سورة طه)

١

استمرَّتْ خيوطُ التآمُرِ على عثمانَ تُحاكُ فى الظَّلام ، ونالَ النَّـاسُ منـه أكْثرَ مـا نِيـلَ مِـن أحد . وكاتَب أهلُ مصرَ أشياعَهم مـن أهـلِ الكوفـةِ وأهـلِ البصْرة ، وتواعدوا على اللِّقاء فـى المدينـة ، فخـرج أهلُ مِصـرَ إلى المدينـةِ مظهريـن رغبتهـم فى الحجّ ، وخرج أهلُ الكوفةِ والبَصْرَة ؛ وبـالقُرب مـن المدينـةِ سارتِ الرُّسلُ بين جماعاتِ الثُّوَّار .

بلغ عثمانَ أنَّ الثُّوَّار قد ساروا إلى المدينـة، وكـان يعلمُ منزلةَ علىٍّ فى النّاس ، فأرسلَ إليه ، يَطْلب منـه أن يخرجَ للِقائِهم وردِّهم ، فخرج علـىٌّ وقـابل أهـلَ مِصر ، ثمَّ عادَ إلى عثمانَ وقال له :

- إنَّ وفدْ مِصرَ يطلبُ عزلَ عبدِ اللّهِ بنِ أبى سرْح .

كان عبدُ اللّهِ واليا على مصر ، وقد كرِهَ النّاس ولايتَه ، وساعد على كُره النّاسِ له ، ما كان يُذيعه عنه محمَّدُ بنُ أبى بكر وأنصارُه . وقَبِلَ عثمانُ رغبةَ المِصريِّين ، فأرسل إليهم ، يقول :

- اختاروا عليكم رجلاً مكانَه .

فاختارَ النَّاسُ محمَّدَ بنَ أبى بكر ، فكتب عثمانُ عهدَه له وولاّه ، فتأهَّب أهلُ مصرَ للعودة إلى ديارِهم ، وسَرَى هذا النَّبأ فى المدينةِ فانتعشتْ ، وانقضى هذا اليومُ بسلام ، وأقبلَ اليومُ التالى ، فدخل مرْوانُ بنُ الحكَم ، وكان مستشارَ عثمانَ وقريبه ، وقال له :

- تكلَّم . أعلِمِ النَّاسَ أنَّ أهلَ مِصرَ قد رجَعوا وأنَّ ما بلغهم عن إمامِهم كان باطلا ، فإنَّ خُطبتَك

تسيرُ فى البلاد ، قبل أن يتحلَّبَ (يفِدَ) النّاسُ عليك من أمصارِهم ، فيأتيكَ من لا تستطيعُ دفعَه .

فأبى عثمانُ أن يخرجَ ليخطُب ، ولكنَّ مروانَ لم يَزِلْ به حتّى خرج ، واعتلى المِنبرَ وقال :

ــ أما بعد ، إنَّ هؤلاءِ القومَ من أهلِ مِصرَ كان بلغَهُم عن إمامِهم أمر ، فلما تيقّنوا أنه باطلٌ ما بلغهم عنه ، رجَعوا إلى بلادِهم .

وكان عمرُو بنُ العاصِ فى المسجد ، وكان عاملاً على مِصرَ وقد عزلَه عثمان ، فأرادَ أن يُثيرَ النّاس على عثمان ، فقال :

ــ اتّقِ اللّهَ يا عثمان ، وتُبْ إلى اللّه .

وهمَّ عثمانُ أن يرُدَّ على عمْرو ، ولكنَّ صوتًا آخرَ نادى من ناحيةٍ أخرى :

ــ تُبْ إلى اللّه ، وأظهرِ التوبة ، يكُفَّ النّاسُ عنك .

فرفع عثمانُ يديه مدّا ، واستقبلَ القِبلَة وقال :
ـ اللهمَّ أنى أوّلُ تائبٍ تابَ إليك .

٢

خرج محمَّدُ بنُ أبى بكر إلى مِصر ، وخرج معه عددٌ من المهاجرينَ والأنصار ، ينظرون فيما بينَ أهلِ مِصرَ وابن أبى سَرْح . وانطلق الرَّكب ، وترك المدينة ، وانقضتْ ثلاثةُ أيّام ، ولمحَ النّاسُ غلامًا أسودَ على بعيرٍ يخبطه خبطا ، فانتظروه لعلَّه يقصِدُهم لحاجة ، ولكنّه لما حاذاهم لم يتمهَّل ، ولم ينتظِر ، بل استمرَّ فى سيره . فارتابوا فى أمرِه ، وبعثوا من يطلبُه ، فجىءَ به ، فسألوه :
ـ ما قضيّتك وما شأنك ؟ أهاربٌ أم طالبٌ أحدا؟

ـ لا هذا ولا ذاك ، وإنّما أنا غلامُ أميرِ المؤمنين ، وجّهنى إلى عامله فى مصر .

فأشار رجلٌ إلى محمَّدِ بنِ أبى بكر ، وقال :

ـ هذا عاملُ مِصر .

ـ ليسَ هذا أريد .

وأراد الغلامُ أن يستأنِفَ سيرَه ، ولكنَّ محمَّدَ ابنَ أبى بكر قبضَ عليه ، وقال له :

ـ غلامُ مَنْ أنت .

ـ غلامُ أميرِ المؤمنين .

فنظر محمّدٌ نظرةً حادّة ، وقال وهو يهُزُّه :

ـ أحقّا ؟

فقال الغلامُ فى خوْف :

ـ بل غلامُ مَرْوان .

فقال له محمَّدُ بنُ أبى بكر :

ـ إلى من أُرسلْت ؟

- إلى عاملِ مصر .
- بماذا ؟
- برسالة .
- مَعَكَ كتاب ؟
- لا
- فتّشوه .

فَفتشوه فوجدوا معه كتابًا من عثمانَ إلى ابنِ أبى سرح ، فجمع محمَّدُ بنُ أبى بكر من كان عندَه من المهاجرينَ والأنصار وغيرِهم ، ثم فكَّ الكِتاب بمحضَرِ منهم ، وراح يقرؤُه ، فرأى أنَّ عثمانَ يأمُر عبدَ اللّهِ بنَ أبى سرحٍ بقتلِه وقتلِ أصحابِه ، فعاد محمَّدٌ إلى المدينة ، وقد عزم على قتلِ عثمان .

٣

سَمِع أهلُ المدينة أصواتَ التكبير ، فخرجوا يسألون : ما الخبر ؟ فعلِموا أنَّ المصريّينَ قد عادوا

٣

أجرى عَمرو بنُ العاصِ الخيلَ بمصر ، فأقبلتْ فَرَس ، فلما رآها الناسُ قام محمدُ بنُ عمرو بنِ العاص ، فقال :

ـ فرسي وربِّ الكعبة .

فلما دنتِ الفرس ، عرفَها صاحبُها المِصريّ ، فقال : فَرَسِي وربِّ الكعبة .

فقام محمدُ بنُ عمرو بنِ العاصِ إلى المِصريّ ، فضربه بالسَّوْطِ ، وقال :

ـ خُذْهُا وأنا ابْنُ الأكْرَمَيْن .

بلغ ذلك أباه عمرَو بنَ العاص ، فخشِيَ أن يشكوَ المِصريُّ ما نالَهُ لأميرِ المؤمنين عمرَ بنِ الخطّاب ، فحبسَ الرّجل ، ولكنه هَرَب من سجنِه ، وأتى عُمر ، فأرسل عُمر إلى عمرو أن يأتيَه من فَوْرِه ،

ـ واللّـه مـا كتبـتُ ولا أمـرْتُ ولا شـوورْتُ ولا علِمت .

فقال عليٌّ بنُ أبى طالب :

ـ قد صدق .

فارتاح إليها عثمان ، وقال المصريّون :

ـ فالكتابُ كتابك ؟

ـ أجَلْ ، ولكنه كُتِب بغير أمرى .

ـ فإنَّ الرسولَ الذى وجدْنا معه الكتابَ غلامُك؟

ـ أجَلْ ، ولكنّه بغير إذْنى .

ـ فالجملُ جمُلك ؟

ـ أجَلْ ، ولكنه أخِذ بغيرِ علمى .

فقالوا له :

ـ مـا أنـتَ إلاّ صـادقٌ ، أو كـاذب ، فـإن كنـت كاذبًـا ، فقـد استحققتَ الخلْع ، لما أمرتَ بـه مـن سفكِ دمائنا بغـير حقّهـا ؛ وإن كنـتَ صادقًـا ، فقـد

استحققتَ أن تُخلعَ لضعفِك وغفلَتِك وخُبثِ بطانتِك ، لأنّه لا ينبغي لنا أن نترِكَ على رقابنا من يَقتطِعُ مثلَ هذا الأمر دونَه ، لضعفه وغفلتِه ، فاردُد خلافتَنا ، واعتزِلْ أمرَنا ، فإنَّ ذلك أسلَمُ منك ، وأسلمُ لك منا .

فقال عثمان :

ـ أمَّا قولُكم تَخْلَعُ نفسَك ، فلا أنزِعُ قميصا قمَّصَنيه اللّهُ عز وجلّ ، وأكرمني به ، وخصَّني به على غيرى ، ولكنْ أتوبُ وأنزِع ، ولا أعودُ إلى شيءٍ عابه المسلمون ، فإنّى واللّه الفقيرُ إلى اللّه ، الخائفُ منه .

ـ فلسنا منصرفين حتى نعزِلَك ، ونستبدلَ بك .

٤

حُوصِرِ عثمانُ فى دارِه ، وقد حَصَره المِصريّون ، واشترك محمّدُ بنُ أبى بكرٍ معهم ، وأرسل عليٌّ بنَ

أبى طالب ولديه الحسنَ والحُسينَ ليقوما على بابِ عثمان ، يدافعان عنه ، وجاء بنو أمية لينصروا عثمان ، ومنع الثُّوّارُ عنه الماء ، فأرسل إلى عليٍّ والزُّبيرِ وطلحة وعائشة ، يقول لهم :

ـ إنَّهم منعونا الماء ، فإن قَدَرتُم أن تُرسلوا إلينا شيئًا من الماء فافعلوا .

فجاء عليٌّ إلى الثُّوّار ، وقال لهم :

ـ يأيُّها الناس ، إن الذى تفعلونه لا يُشبه أمرَ المؤمنين ، ولا أمرَ الكافرين ، لا تقطعوا عن هذا الرَّجل الماء ، فإنَّ الرُّومَ وفارسَ لتأسِرُ فتُطعِمُ وتَسْقِى ، وما تعرَّضَ لكم هذا الرجل ، فبِمَ تستحِلُّونَ حَصْرَه وقتله ؟

فقال الثُّوّار .

ـ لا واللّه ، لا نترُكه يأكل ولا يشرب ...

وحاول الثُّوارُ اقتحامَ الباب ، فبرز لهم الحسنُ والحُسينُ وابنُ الزُّبير ، ومن كان من أبناءِ الصَّحابة ، وتضارب الفريقانِ بالسُّيوف ، فنادى عثمانُ من يدافعونَ عنه :

ـ اللّهَ اللّه ! أنتم فى حِلٍّ من نُصرتى .

فرفضوا واستمرّوا فى القِتال ، ففتح عثمانُ الباب ، وخرج ومعه السيفُ لِيُنْهيهم ، فلما رأى الثُّوارُ عثمانَ ثبتوا مكانَهم قليلا ، ثم ولّوا فَزعين ، فأقسمَ عثمانُ على المدافعينَ عنه : ليدخُلُنَّ ، فدخلوا ، فأغلق البابَ دونَ الثُّوّار .

جاء الثُّوّارُ بنار ، وأحرقوا البابَ ، والسَّقيفة ، فأخذ الخشبَ يحترق ، وأغفَى عثمانُ بنُ عفّانَ ، ثم استيقظَ فقال :

ـ لولا أنْ يقولَ النّاسُ تَمَنَّى عثمانُ أمنيةً لحدَّثْتكم .

ـ أصلحكَ اللّه ، حدِّثنا ، فلسنا نقولُ ما يقولُ النّاس .

ـ إنّي رأيتُ رسولَ اللّهِ في منامي هذا ، فقال : « إنّكَ شاهدٌ معنا الْجُمُعَة » .

وأكلتِ النّارُ الخشبَ ، فسقطتِ السّقيفة ، فثار أهلُ الدّار ، وخرج الحسنُ والحسينُ وأبناءُ الصّحابة يبادرُون الثّوّار ، ووقف عثمانُ يُصَلّي في هدوء ، كأنّما الأمرُ لا يعنيه ، وجعل يقرأُ في صلاتِه : « طه . ما أنزلنا عليكَ القرآنَ لتشقَى » . واستمرَّ في قراءتِه هادئَ النَّفْس ، وأتمَّ صلاتَه ، ثم التفتَ إلى ابنِ الزبيْر ، وأمره أن يأمرَ الذين يدافعونَ عنه أن ينصرِفوا إلى منازلهم .

واستمرَّ القتالُ ناشبًا أمامَ دارِ عثمان ، فَجُرِحَ الحسن ، فخشِيَ الثّوّار أن يثورَ بنو هاشمٍ للحسن ، فتسلّق محمّدُ ابنُ أبي بكر السُّور ، وتسلّقه معه بعضُ

الثُّوَّار ، ودخلوا على عثمانَ دون أن يعلمَ أحدٌ بذلك مِمَّن كانوا بالباب .

وتقدَّم محمَّدُ بنُ أبي بكر من عثمان ، فأخذَ بلحيتِه فقال :

ـ ما أَغنى عنك مُعاوية ، وما أغنَى عنك ابنُ عامر ، وما أغنتْ عنك كُتُبك ، على أيِّ دينٍ أنت ؟

ـ على دينِ الإسلام ، يابْنَ أخي . ما كان أبوكَ ليأخذَ بلحيتي .

أحسَّ محمَّدُ بنُ أَبي بكر خِزْيا ، فغطى وجهَه بيدِه ، ثمَّ انسحبَ خافضَ الرَّأس ، وحاول أن يدفعَ الثُّوَّار المُقبلينَ لقتلِ عثمان ، ولكنَّه لم يُوفَّق ، فقد ضرَب أحدُهم عثمان بحربَتِه ، وضربه آخرُ بسيفِه . وقامت زوجتُه تدافعُ عنه ، فقطع السيفُ أصابعَها ، فصرختْ :

- قد قُتلَ أميرُ المؤمنين .

وبلغ صوتُها آذانَ المدافعينَ عنِ الباب ، فأسرعوا بالدّخول ، فوجدوا عثمانَ مقتولا ، فبكَوْا ، وذاع النّبأ : ألا إنَّ أميرَ المؤمنينَ قد قُتل ، فأَقبلَ عليٌّ ، ودخل الدّارَ وهو حزين .

ولم يجرُؤ أحدٌ على دفنِ عثمان ، خشيةَ بطشِ الثّوارِ به ، فلما جاء الليل ، خرج أهلُ الدّار بجُثمانِ عثمانَ وهم يتلفّتون ، حتّى إذا بلغوا جدارا دفنوه ، وعادوا مسرعينَ وهم خائفون ، وهكذا دُفنَ عثمان خليفةُ المسلمين ، وصِهرُ الرّسول ، في سكونِ اللّيل ، وفي غفلةٍ من الناس !